رحالة عبر الزمن

بيتر ووكر يقدم لمحة عن حياة **كلوديا غولدين**، صاحبة العمل الرائد في دراسة دور المرأة في الاقتصاد

الصورة: BRYCE VICKMARK PHOTOGRAPHY

لمن تَمَلَّكهم القلق إزاء عمق الانقسام السياسي والاقتصادي في الولايات المتحدة اليوم، تُذَكِّرهم كلوديا غولدين، أستاذ الاقتصاد في جامعة هارفارد، بحقيقة بسيطة: لا جديد تحت الشمس.

وتقول غولدين في مقابلة مع مجلة التمويل والتنمية: «لقد نشأت انقسامات سياسية عميقة في الماضي... لا سيما في الفترات التي اتسمت بمستوى مرتفع ومتزايد من عدم المساواة في توزيع الدخل والثروة.» وتشير باعتزاز لما تنبأ به القاضي ستيفن فيلد حين قال في سياق رفض المحكمة العليا لقانون ضريبة الدخل عام ١٨٩٤ إن فرض ضريبة على الدخل سيكون بداية «حرب يشنها الفقراء على الأغنياء». (جاء التعديل السادس عشر في عام ١٩١٣ ليفسح الطريق أمام ضريبة الدخل التي تُطَبَّق اليوم).

وها هي المؤرخة الاقتصادية وخبيرة اقتصاديات العمل وقضايا الجنسين ذات الاثنين والسبعين عاماً تستخلص دروساً من الماضي لتفهم الحاضر بصورة أفضل. فعلى مدار حياتها المهنية التي تجاوزت أربعة عقود، درست غولدين الآثار الاقتصادية لتغير التكنولوجيا، وعدم المساواة، والتعليم، وتلوث المياه، والفساد. وهي مشهورة ببحوثها ورؤاها العميقة لدور المرأة في اقتصاد الولايات المتحدة، وبأنها بلورت فهماً متطوراً ودقيقاً لأسباب فجوة الأجور المعروفة بين الجنسين.

وتتحدث غولدين إلى وسائل الإعلام بانتظام في «يوم تَساوي الأجور» (Equal Pay Day)، وهي مناسبة سنوية تُقام لبيان الفترة المضافة إلى العام التي سيكون على المرأة الأمريكية أن تمارس فيها العمل حتى تحقق دخلاً مساوياً لما حققه الرجل في العام السابق، (سيكون تاريخ اليوم القادم ٢ إبريل ٢٠١٩). وتشير أبحاث غولدين التي تغطي ٢٠٠ عام من التاريخ الاقتصادي إلى أن عدم المساواة في الأجور ليس نابعاً من التمييز ضد المرأة بقدر ما يرجع إلى ارتفاع تكلفة المرونة في مكان العمل والجمع بين العمل والأسرة، كما توضح في تصريحاتها الإعلامية التي تبث على الهواء كل عام.

وكثيرا ما يُشار إلى غولدين باعتبارها واحدة من أكثر عشر خبيرات اقتصاديات تأثيراً في العالم. فقد كانت رائدة في دراسة دور المرأة في الاقتصاد منذ ٤٠ عاماً، كما ألهمت أجيالاً جديدة من الخبيرات الاقتصاديات، وساعدت على تعميم منظور الاقتصاد الجنساني. وحصلت غولدين على جائزة «إيزا» (IZA) في «اقتصاديات العمل» عام ٢٠١٦ وجائزة «مينسر» (Mincer Prize) من جمعية خبراء اقتصاديات العمل في ٢٠٠٩ عن مجموع مساهماتها مدى الحياة. وقد شغلت منصب رئيس الجمعية الاقتصادية الأمريكية في الفترة ٢٠١٣–٢٠١٤ وكانت أول امرأة تُمنح وظيفة ثابتة كأستاذ اقتصاد في جامعة هارفارد وجامعة بنسلفانيا.

وتتذكر غولدين المولودة عام ١٩٤٦ في برونكس، أحد أحياء مدينة نيويورك، كيف كانت مولعة في مطلع حياتها بالبحث والاستكشاف الفكري، فأخذت تنهل من عجائب المتاحف الواقعة في مانهاتن حيث بدأ شغفها الأول بعلم الآثار ثم علم الجراثيم. والتحقت في البداية بجامعة كورنيل لدراسة علم الأحياء المجهري لكن اهتمامها تحول إلى العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، خاصة التاريخ والاقتصاد، وهو ما أصبح مجال تخصصها الرئيسي في دراستها الجامعية. وقد أكملت دراستها بعد ذلك لتحصل في عام ١٩٧٢ على درجة الدكتوراه في التنظيم الصناعي واقتصاديات العمل من جامعة شيكاغو.

وتشرح غولدين سبب أهمية التاريخ لعلم الاقتصاد، مستشهدة بكتاب «السباق بين التعليم والتكنولوجيا» (*The Race between Education and Technology (2008)*)، الذي اشتركت في تأليفه مع زميلها لورانس كاتس، أستاذ الاقتصاد في جامعة هارفارد، وهو زوجها أيضاً.

تقول غولدين: «بحثنا أنا ولاري كاتس ما طرأ من تغيرات على حالة عدم المساواة في توزيع الدخل بعد ثمانينات القرن العشرين مقارنة بالفترة السابقة عليها واستقصينا النظرية التي تقول بأن عدم المساواة زاد بعد الثمانينات بسبب التغير التكنولوجي المتحيز للمهارات». وأضافت: «التاريخ جعلنا نفهم أن التغير التكنولوجي المتحيز للمهارات ليس حدثاً جديداً، بل هو موجود منذ وقت طويل للغاية، كما أتاح لنا أن نحدد القوى المؤثرة على المدى الأطول».

وتوصلت دراسة غولدين وكاتس إلى أن فجوة الدخل بين العاملين الأعلى تعليماً والأقل تعليماً كانت واسعة أيضاً في ١٩١٥، ثم ضاقت حتى الخمسينات، لتتسع من جديد في الثمانينات. وبدراسة القرن بأكمله، رأى المؤلفان أن تغيرات العرض والطلب بالنسبة للعاملين الجامعيين هي السبب الأكبر وراء تقلب المقدار الإضافي في أجور أصحاب المستويات التعليمية الأعلى. وترجع هذه الارتفاعات والانخفاضات إلى السباق بين التعليم والتكنولوجيا حيث تسعى النظم التعليمية إلى مواكبة تغيرات الطلب على المهارات بسبب التطور التكنولوجي.

صناعة بصمتها الخاصة

ومع ظهور الحركة النسائية في سبعينات القرن العشرين، أدركت غولدين أين يمكن أن تصنع بصمتها الخاصة: في دراسة مشاركة المرأة في الاقتصاد. وقد كانت تُعايش فترة من التغير الاجتماعي الكبير والتحول في التصورات السائدة تجاه دور المرأة.

وفي مقالة تناولت سيرتها الذاتية بعنوان "The Economist as Detective"، كتبت عام ١٩٩٨: «أدركت أن هناك شيئاً ناقصاً. فقد أَغفَلْت عضو الأسرة الذي سيمر بأعمق تغيير على المدى البعيد — وهو الزوجة والأم. سهوت عنها لأن كل المصادر فعلت ذلك. كانت النساء يظهرن في البيانات حين يكن صغيرات وغير متزوجات وكثيراً ما يظهرن فيها حين يكن أرامل. لكن قصصهن كانت تُسمَع بالكاد بعد الزواج».

وبدءاً من أواخر السبعينات، أجرت غولدين سلسلة من الدراسات بحثت فيها الأبعاد المختلفة لتطور مشاركة المرأة في سوق العمل في الولايات المتحدة على مدار ٢٠٠ عام. وفي كتابها بعنوان «فهم الفجوة بين الجنسين: تاريخ اقتصادي للمرأة الأمريكية» (*Understanding the Gender Gap: An Economic History of American Women (1990)*)، قالت إن تاريخ فجوات الأجور بين الجنسين لم يمر بتطور مطرد، بل شهد نوبات منفصلة ضاقت فيها فجوات الأجور، مثلما حدث في مطلع القرن التاسع عشر مع الميكنة، وفي مطلع القرن العشرين مع نشأة العمل المكتبي، وفي ثمانينات القرن العشرين عندما حققت المرأة إنجازات في التحصيل العلمي.

وفي ٢٠٠٦، أجرت غولدين دراسة عنوانها «الثورة الهادئة التي أحدثت انقلاباً في عمل المرأة وتعليمها وأسرتها» (The Quiet Revolution That Transformed Women's Employment, Education, and Family)، حددت فيها أربع مراحل شكلت دور المرأة في الاقتصاد الأمريكي بدءاً من أواخر القرن التاسع عشر. وصنفت المراحل الثلاثة الأولى باعتبارها مراحل «تطورية»، ووضعت لها عنوان «المرأة العاملة المستقلة» حتى العشرينات، ثم «تخفيف القيود عن المرأة المتزوجة العاملة» بين الثلاثينات والخمسينات، ثم «جذور الثورة» بين الخمسينات والسبعينات. ثم جاءت «الثورة الهادئة» بدءاً من أواخر سبعينات القرن العشرين.

وكتبت غولدين أنه رغم الإنجازات المهمة التي تحققت عبر تلك المراحل التطورية، فقد كان الأرجح أن ترى المرأة حياتها العملية آنذاك باعتبارها فترات عمل متقطعة ووسيلة لكسب الرزق. وكانت سيطرتها محدودة على أهم القرارات التي تؤثر على عملها. وعلى العكس من ذلك، كانت المرأة في حقبة الثورة الهادئة عادة ما ترى حياتها العملية كجزء مهم من هويتها الشخصية وكانت تتخذ بنفسها كل ما يتعلق بها من قرارات. وتوصلت غولدين إلى أن هذه المرحلة الأخيرة كانت مدفوعة في الأساس بزيادة توافر وسائل منع الحمل وارتفاع معدل الطلاق.

أقصى حدود المساواة

غير أن الثورة الهادئة لم تسد فجوة الأجور بين الجنسين. ففي دراسة أجرتها غولدين عام ٢٠١٤ بعنوان «التقارب الشامل بين الجنسين: الفصل الأخير» (A Grand Gender Convergence: Its Last Chapter)، ذكرت أن تضييق الفجوة هو أحد التحديات الأخيرة أمام تحقيق المساواة بين الجنسين في مكان العمل في الولايات المتحدة وسائر الاقتصادات المتقدمة. وهنا جاء الإنجاز غير المسبوق الذي حققته أبحاث غولدين التي ذهبت بالنقاش إلى ما وراء الشروح المبنية على التحيز الجنساني وأوضحت أن معظم فجوات الأجور ترجع إلى ارتفاع تكلفة «المرونة الزمنية» — أو عمل النساء لساعات أقل أو ساعات أكثر مرونة لكي تتمكن من رعاية أسرتها. وبالتالي، فإن تضييق الفجوة يعتمد على إعادة هيكلة الوظائف لتسمح بمرونة أكبر لكل العاملين، ومن ثم تنخفض التكاليف المصاحبة للمرونة. وقد يبدو هذا التغيير الأساسي مهمة شاقة، إلا أن غولدين أشارت إلى حدوث هذا التحول بالفعل في مجالات منها التكنولوجيا والعلوم والرعاية الصحية، وأن ثماره تعود على الرجل والمرأة على السواء.

وفي هذا الصدد تقول: «إذا كانت النساء وحدهن هن من يمارسن الضغط على الشركات لتوفير وظائف أكثر مرونة بتكلفة أقل، فلن يتحقق الكثير».

ومع اتساع النطاق الذي غطته غولدين في دراستها للقضايا الجنسانية، امتدت مساهماتها الأكاديمية لتشمل نطاقاً أوسع. ففي المجلد المنقح الصادر عام ٢٠٠٦ بعنوان «الفساد والإصلاح: دروس من التاريخ الاقتصادي الأمريكي» (*Corruption and Reform: Lessons from America's Economic History*)، تشترك غولدين مع إدوارد غليزر، أستاذ الاقتصاد في جامعة هارفارد، في دراسة التراجع الكبير في فساد الموظفين العموميين بالولايات المتحدة في الفترة بين عامي ١٨٧٠ و١٩٢٠. وتقول إن الصحافة الحرة القوية والمستقلة كانت الدافع الأساسي في هذا الاتجاه.

وتُوضح في هذا الصدد أن «السلطة الرابعة أدت دوراً بالغ الأهمية في تعريف الجمهور بمجريات الأمور، وفي كتابة التقارير الإعلامية والقيام بأعلى مستويات الصحافة الاستقصائية.» وتضيف: «لقد كشف بحثنا كيف نشأت الصحافة الحرة الأكثر حيادية والأكثر استقلالاً عن التأثيرات السياسية في الولايات المتحدة في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين».

نسبة طلاب الجامعة المتخصصين في الاقتصاد إلى الطالبات في نفس التخصص ظلت ثابتة عند مستوى ٣ إلى ١ طوال عشرين عاماً، مما يشير إلى إعراض عدد كبير من الشابات عن هذا التخصص.

وفي دراسة مشتركة أجرتها غولدين عام ٢٠١٨ مع مارسيلا آلسان، الأستاذ في كلية الطب بجامعة ستانفورد، تحت عنوان «نقاط التحول في وفيات الأطفال: دور البنية التحتية الفعالة للمياه والصرف الصحي من ١٨٨٠ حتى ١٩٢٠» (Watersheds in Child Mortality: The Role of Effective Water and Sewerage Infrastructure, 1880 to 1920)، تقترح المؤلفتان ما ينبغي للبلدان منخفضة الدخل أن تركز عليه في سعيها لتخفيض وفيات الأطفال. فبتحليل بيانات عن بوسطن بين عامي ١٨٨٠ و١٩٢٠، خلصت المؤلفتان إلى أن ثلث الانخفاض في وفيات الأطفال كان ثمرة الجهود التي بُذِلت لتوفير مياه نظيفة وشبكات صرف

الصورة: STEPH STEVENS

كلوديا غولدين مع كلبها الغولدن رتريفر «بيكا».

صحي فعالة. وكما ذكرت غولدين في حديثها مع مجلة التمويل والتنمية، يمكن أن تحقق البلدان النامية نتائج أفضل ببناء شبكات للمياه النظيفة والصرف الصحي مقارنة بما يمكن أن تحققه بانتهاج سياسات أخرى تدريجية.

وفي عام ٢٠١٤، أسست غولدين برنامجاً أسمته «برنامج الجامعيات المتخصصات في الاقتصاد» ("Undergraduate Women in Economics Program")، وهي مبادرة لتشجيع مزيد من الطالبات على التخصص في علم الاقتصاد. وتقول عن هذا البرنامج إن نسبة الطلاب المتخصصين في الاقتصاد إلى الطالبات في نفس التخصص ظلت ثابتة عند مستوى ٣ إلى ١ طوال عشرين عاماً، مما يشير إلى إعراض عدد كبير من الشابات عن هذا التخصص لأنهن لا يتصورن العمل في المجالات المالية أو المصرفية.

وتقول غولدين «إذا فهمن أن علم الاقتصاد مادة واسعة ومفيدة للغاية، فسوف يدركن أن بإمكانهن التخصص في الاقتصاد مع اكتساب ميزة تنافسية أكبر في مجموعة من المجالات الأخرى». ويركز البرنامج على مجموعة من ٢٠ جامعة وكلية أمريكية يجري اختيارها عشوائياً من بين الجامعات والكليات التي تخرِّج سنوياً حوالي ٢٥ متخصصاً في الاقتصاد، ومنها جامعة كاليفورنيا بيركلي، وجامعة ولاية كولورادو، وجامعة برينستون، وجامعة واشنطن آند لي، وكلية ويليامز. ويقدم البرنامج منحاً صغيرة تبلغ قيمة كل منها ١٢٥٠٠ دولار تقريباً لتشجيع النساء على الدراسة لنيل درجات جامعية في الاقتصاد (وهو ما يفتح الشهية كقطعة كبيرة من البيتزا!، حسب تشبيهها).

بناء تركة تبقى

على مدار ٢٨ عاماً حتى عام ٢٠١٧، ظلت غولدين تشغل منصب مدير «البرنامج المعني بتطور الاقتصاد الأمريكي» (DAE) في المكتب الوطني للبحوث الاقتصادية. وعلى مدار العقدين الماضيين، نشر المؤرخون الاقتصاديون عدداً متزايداً من الدراسات عن تاريخ الاقتصاد في أهم الدوريات الاقتصادية.

وعن هذا البرنامج تقول ليا بوستان، الأستاذ في جامعة برينستون والمنسق الحالي للبرنامج بالتعاون مع بيل كولينز الأستاذ في جامعة فاندربيلت، إن «كلوديا شكلت البرنامج ليصبح بيئة بحثية مثمرة، حيث جمعت بين النظرية الاقتصادية والأدلة التاريخية». وتضيف: «تحت قيادة كلوديا، أصبح البرنامج أرضاً خصبة للفكر تتميز بالنقد البناء والانفتاح على الأفكار الجديدة».

وتشير غولدين، من جانبها، إلى رؤيتها الواسعة لنطاق علم الاقتصاد باعتبارها مساهَمة أساسية في عمل المكتب الوطني للبحوث الاقتصادية.

وتقول «أظن أن التركة التي خلفتها هي أنني توسعت في تخصصات المجموعة المشاركة لتشمل طائفة من المجالات لم تكن مشمولة في التصور الأصلي للبرنامج.» وتضيف أن ذلك تضمن «باحثين من أقسام أخرى في المكتب الوطني للبحوث الاقتصادية ممن كانوا يستخدمون المادة التاريخية ويفهمون المنهجية الخاصة للتاريخ الاقتصادي».

وقد كان المكتب الوطني للبحوث الاقتصادية، الذي أنشئ منذ ٩٨ عاماً ويقع مقره بالقرب من حرم جامعة هارفارد في مدينة كامبريدج بولاية ماساتشوسيتس، هو المكان الذي التقت فيه غولدين وكاتس وهما عاكفان على مشروعاتهما البحثية.

وعن هذا تقول: «نحن نمزح أحياناً ونسميه المكتب الوطني للرومانسية الاقتصادية». وإلى جانب اهتمامهما بالاقتصاد، يشترك الباحثان في الاهتمام بمراقبة الطيور، وممارسة المشي لمسافات طويلة في الطبيعة، وتمشية كلبهما «بيكا»، وهو من سلالة غولدن رتريفر ويبلغ من العمر ثماني سنوات. وتخصص غولدين قسماً في صفحتها على الموقع الإلكتروني لجامعة هارفارد يتضمن إنجازات بيكا في مسابقات اقتفاء الأثر، مع صورة يظهر فيها مغطى بالشرائط التي حصل عليها كجوائز في هذه المسابقات. وربما كان ذلك صدىً من بعيد يحاكي مساعيها الاستقصائية أيام الطفولة عندما كانت ترتاد المتاحف في أنحاء نيويورك بحثاً عن مفاتيح للعالم من حولها. FD

بيتر ووكر هو مسؤول أول لشؤون التواصل في إدارة التواصل بصندوق النقد الدولي.